الدور السياسى لملكات "أدوماتو"

فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد

د. أحمد محمد أحمد البربرى

مدرس تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم

كلية الآداب – جامعة عين شمس

العدد السابع والثلاثون

يوليو ٢٠١١م

مقدمة:

شهدت منطقة "دومة الجندل"[١] قيام مملكة عرفت فى النصوص الآشورية[٢] باسم "أدوماتو"، وعرف ملوكها وملكاتها من النصوص الآشورية المؤرخة من عصر الإمبراطورية الآشورية الثانية[٣]. وقد حكمت هذه المملكة سبع ملكات خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد وهن[٤]:

١- الملكة زبيبة ٧٥٠- ٧٣٥ ق.م.
٢- الملكة سمسى ٧٤٦- ٧١٠ ق.م.
٣- الملكة يطيعه ٧١٠- ٦٩٥ ق.م.
٤- الملكة تلخونوا ٦٩٠- ٦٧٨ ق.م.
٥- الملكة اسكالاتـو.
٦- الملكة تبـوءة.
٧- الملكة عاديـة.

وكان حكمهن معاصراً لملوك عصر الإمبراطورية الآشورية الثانية[٥]:

- تجلات بلاسر الثالث ٧٤٥- ٧٢٧ ق.م.
- شلمنصر الثانى ٧٢٢- ٧٠٥ ق.م.
- سنحريب ٧٠٥- ٦٨١ ق.م.
- اسرحدون ٦٨١- ٦٦٩ ق.م.
- آشور بانيبال ٦٦٨- ٦٢٦ ق.م.

التسمية والموقع:

عُرفت دومة الجندل ومملكتها باسم "أدوماتو" Adu-mma-tu فى المصادر الآشورية، بينما عرفت عند بلينيوس باسم دومتا Domatha، وذكرها المؤرخ بطلميوس الجغرافى باسم دوميتا Doumaetha، وقد حُرفت

فى اللغة العربية إلى كلمة دومة ثم أضيف إليها الجندل والتى تعنى الصخر، ومن ثم عرفت باسم "دومة الجندل"[٦]، والتى تمثل منطقة الجوف الحالية[٧].

وتقع دومة الجندل على بعد ٤٠٠ ك.م شرق مدينة البتراء عاصمة الأنباط على حافة النفود الكبير، وكانت بمثابة القلعة الحصينة للجزيرة العربية من الشمال، ومن هنا اكتسبت أهميتها فى التاريخ القديم فى صد الأخطار من القوى المجاورة وعلى رأسها الإمبراطورية الآشورية[٨].

إذا كانت مملكة "أدوماتو" قد عرفت الزراعة اعتماداً على الأمطار ومياه الآبار التى ساعدتها على توافر الأراضى الخصبة وقيام السكان بالزراعة، إلا أن شأن هذه المملكة كان شأن الممالك الشمالية التى قامت فى شمال شبه الجزيرة العربية والتى اعتمدت فى قيامها على حركة التجارة عبر الطرق التجارية المعروفة حينذاك، فقد كان لهذه المملكة دور هام اعتماداً على الحركة التجارية عبر أراضيها والقادمة من الجنوب والمتجهة سواء إلى الشمال الغربى نحو بلاد الساحل السورى أو إلى الشمال الشرقى نحو بلاد الرافدين، فقد استطاعت ملكات هذه المملكة تحقيق مكاسب اقتصادية كثيرة من مصدر دخل كبير دفعها نحو القوة، بل دفع ذلك ملوك الإمبراطورية الآشورية الثانية إلى الاهتمام بهذه المملكة لضمان حماية القوافل التجارية القادمة إليها من الجنوب وما تحمله من منتجات كان أبرزها البخور كمادة هام مرتبطة بالحياة الدينية عند الآشوريين.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان من الضرورى محافظة آشور على حدودها من غارات ـ عريبى كما عرفت فى بعض النصوص ـ أى عرب مملكة أدوماتو[٩].

سياسة ملكات أدوماتو:

أولاً: الملكة زبيبة ٧٥٠- ٧٤٦ ق.م

أشارت حوليات الملك "تجلات بلاسر الثالث" أنه تلقى الجزية من ملكة العرب "زبيبى / زبيبة"[١٠]، ويبدو من ذلك أن المخاوف الآشورية من

توقف وصول التجارة إليها قد انتهت، حيث يستدل من النص أن دفع هذه الملكة للجزية ربما جاء بعد تهديد الملك الآشورى بغزو هذه المملكة عندما اعتلت الملكة عرش "أدوماتو"، وأن المشاكل التى سببتها هذه الملكة قد قضى عليها بعد أن كثرت قبل مجيء تجلات بلاسر للعرش ما بين ٧٥٠-٧٣٥ ق.م[١١].

ويُعد النص الآشورى الدليل الوحيد على حكم الملكة زبيبة لمنطقة تقع شمال بلاد العرب حيث ورد اسمها فى آخر الأسماء الوارد فى النص، ويبدو أن هذه الملكة حكمت منطقة قريبة من بلاد الشام ويرجح أنها واحة دومة الجندل الواقعة على الطرف الجنوبى من وادى سرحان، حيث معبر التجارة المار بالطريق بين جنوب الجزيرة وشمالها والمؤدى إلى اتجاه الغرب.

مما أشار إليه النص أيضاً أن "زبيبة" قد دفعت الجزية للملك الآشورى ضمن الملوك الآخرين الذين أدانوا بالولاء للإمبراطورية الآشورية.

ثانياً: الملكة سمسى ٧٤٦- ٧١٠ ق.م:

خلفت الملكة "زبيبة" على عرش مملكة "أدوماتو" ملكة أخرى تدعى "سمسى" أو "سامسى"[١٢]، والتى دخلت فى طاعة دولة آشور كسابقتها إلا أن هذه السياسة لم تستمر كثيراً؛ إذ أنها تراجعت عن ذلك وواجهت آشور، فيستدل من النص الذى تركه الملك "تجلات بلاسر الثالث" أنه جابه سياسة التمرد التى اتبعتها الملكة "سمسى" وقاد حملة عسكرية ضد مملكة "أدوماتو" فى العام العاشر من حكمه حوالى ٧٣٥ ق.م واستطاع إخضاع هذه المملكة مرة أخرى[١٣]، فقد صور نقش الملك الآشورى . والذى جاء على لوح من الطين . فارسين آشوريين يحملان رمحين وخلفهما (عربى) راكباً جملاً وجثث العرب ملقاة على الأرض تحت أقدام هذين الفارسين، وقد صور الأعراب فى صورهم بشعورهم الطويلة المسدولة إلى الخلف وبلحياهم الكثيفة وأجسامهم العارية إلا من قطع على خصرهم مشدود بحزام، وحيث صُور هؤلاء الأعراب ممدودى الأيدى يسترحموا فى توسل للفارسين، بينما صورت الملكة سمسى

حافية ناشرة شعرها تحمل فى يديها جرة . غير معروف طبيعتها . وقد عانت العطش والجوع(١٤).

وعندما تولى الملك الآشورى "شلمنصر الخامس" عرش الإمبراطورية خلفاً لوالده لم تتحدث النصوص عن أى صراع مع مملكة "أدوماتو" بما يشير إلى استمرار تبعية الملكة "سمسى" لآشور وبقاءها على عرش المملكة حتى تولى الملك سرجون الثانى حكم آشور حيث ظهرت هذه الملكة على مسرح الأحداث مرة أخرى.

يبدو أن شمال غرب الجزيرة العربية قد شهد مع بداية حكم الملك سرجون الثانى عدم استقرار للأحوال السياسية بما هدد التجارة القادمة من جنوب الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين، مما دعى هذا الملك الآشورى إلى شن عدة حملات عسكرية على هذه المناطق استطاع فى واحدة منها إخضاع مملكة "أدوماتو" وملكتها "سمسى" إلى السيادة الآشورية بل واستلام الجزية منها(١٥).

ويؤكد ذلك ما ورد من نقش للملك الآشورى مؤرخ من العام السابع من حكمه حوالى ٧١٥ ق.م أنه استلم الجزية من "سمسى" وغيرها من الممالك الصغيرة شمال غرب الجزيرة العربية.

ثالثاً: الملكة يطيعه ٧١٠- ٦٩٥ ق.م

تولت الملكة يطيعه حكم مملكة "أدوماتو" قبل خمس سنوات من نهاية حكم الملك الآشورى "سرجون الثانى"، واستمرت تبعيتها لدولة آشور دافعة للجزية حتى اعتلاء الملك سنحريب عرش آشور وقد استمر فى سياسة والده فى إخضاع ممالك شمال غرب الجزيرة العربية وفرض سيطرته عليها حتى يضمن تدفق ووصول منتجات الجنوب إلى بلاده.

ويبدو أن تجارة بلاد آشور القادمة من جنوب غرب الجزيرة العربية والمارة بمملكة أدوماتو قد تعرضت للخطر فى عهد الملكة "يطيعه"، مما دفع الملك "سنحريب" إلى شن حملة عسكرية بقيادته على شمال غرب الجزيرة العربية استطاع بها أن يخضع تلك المملكة ويتلقى الجزية من ملكتها، حيث وصفها النقش الآشورى(١٦) بأنها ملكة "عريبو" أى بلاد العرب فى إشارة واضحة إلى مملكة "أدوماتو"(١٧).

رابعاً: الملكة تلخونوا ٦٩٠- ٦٧٨ ق.م:

ما أن وصلت الملكة تلخونوا إلى عرش أدوماتو خلفاً للملكة يطيعه حتى أعلنت التمرد والعصيان على ملوك آشور فى عهد الملك سنحريب والذى أسرع بالخروج إليها بجيشه فى العام الخامس عشر من حكمه، وهاجم مملكة أدوماتو وتعقب ملكتها فى عقر دارها وانتصر عليها(١٨). وقد سجلت هذه الأحداث نص الملك سنحريب الذى وصف الملكة تلخونوا بأنها "ملكة بلاد العرب"(١٩).

خامساً: الملكة اسكالاتو:

من خلال النصوص الآشورية فى عهد الملك أسرحدون ٦٨١- ٦٦٩ق.م(٢٠) التى أشارت أن والدة الملك سنحريب نفسه هاجم مملكة أدوماتو وبسط نفوذه عليها وأسر ملكتها الجديدة اسكالاتو والتى وصفت بأنها ملكة العرب(٢١).

يتضح أن كل من الملكة يطيعه والملكة اسكالاتو قد عاصرتا الملك الآشورى سنحريب، وربما كان ذلك إشارة إلى قصر مدة حكم الملكة اسكالاتو.

سادساً: الملكة تبؤة:

مما يؤكد اقتراح الباحث بقصر مدة حكم الملكة اسكالاتو ما ذكره نص الملك اسرحدون(٢٢) عن عهد والده سنحريب أنه حين أسر ملكة

أدوماتو حمل معه أميرة تدعى تاربو أو تبؤة إلى آشور حيث تربت فى قصر أبيه، وأنها عادت إلى دومة الجندل لتحكمها، بعد حكم الملكة اسكالاتو، وربما أرادت آشور بذلك جعل الأمراء الوطنيين للمناطق التابعة لها يدينون بالولاء لآشور حيث نشأوا وتربوا فيها[٢٣]، وربما هذه هى السياسة التى اتبعت عند بعض ملوك الشرق الأدنى وعلى رأسهم ملوك مصر فى عصر الدولة الحديثة.

سابعاً: الملكة عادية:

ورد اسم هذه الملكة فى نصين مؤرخين من عهد الملك "آشور بانيبال"[٢٤]، فقد وصفت فى النص الأول أنها زوجة ملك بلاد العرب، أما النص الثانى وصفت فيه بأنها ملكة بلاد العرب والتى هزمها الملك الآشورى وأسرها وأحضرها إلى عاصمته.

ويرى الباحث أن حكم الملكة عادية كان امتداد لحكم ملكات دومة الجندل بعد فترة انقطاع قصيرة كما أشار النص إلى أنها كانت زوجة ملك بلاد العرب، إن لم يكن هناك اضطراب فى النص الآشورى بهذا الشأن.

ومما تقدم يتضح أن مملكة "أدوماتو" كانت ضمن الممالك العربية التى قامت فى شمال شبه الجزيرة العربية، قاد دورها السياسى والاقتصادى عدد من الملكات فى تلك المنطقة وجعلوا منها قوى استطاعت أن يكون لها دور مؤثر على مسرح الأحداث فى شمال شبه الجزيرة العربية وخاصة مع الإمبراطورية الآشورية وبفضل نفوذها المتحكم فى طرق التجارة وضروبها المارة بها مما دفع ملوك آشور إلى شن الحملات العسكرية لإخضاع هذه المملكة بما يؤكد تأثيرها رغم خضوع ملكاتها ودفع الجزية لعرش آشور.

وربما يؤكد ذلك أن هناك ممالك عربية أخرى لعبت نفس الدور، كان على آشور التعامل معها من منطلق قوة هذه الممالك.

الهـــوامـش:

١- تقع "دومة الجندل" أقصى وسط شمال" "نجد" وجنوب بادية الشام، وتشغل حالياً إقليم "الجوف".

٢- النصوص الآشورية أو حوليات ملوك آشور هى تلك النصوص والكتابات التى وردت على آثار الإمبراطورية الآشورية، انظر:

- **Luckenbill, D. D.: Ancient Records of Assyria and Babylonia, 2 vols., Chicago 1924; Pritchard, J.: Ancient Near Eastern Texts, London 1950.**

٣- ينقسم العصر الآشورى الحديث والمعروف بعصر الإمبراطورية الآشورية ٩١١-٦١٢ ق.م إلى عصر الإمبراطورية الآشورية الأولى وقد حكمها تسعة ملوك امتد من ٩١١ وحتى ٧٤٥ ق.م، أما عصر الإمبراطورية الآشورية الثانية فقد حكمها عشرة ملوك من ٧٤٥ وحتى ٦١٢ ق.م.

عامر سليمان وآخرون: العراق فى التاريخ، بغداد ١٩٨٣، ص ١١٩.

وحيث أجمعت كل الآراء على أن الملك "تجلات بلاسر" واعتلاءه العرش يدخل العصر الآشورى فى عصر الإمبراطورية الآشورية الثانية والتى شهدت ازدهاراً على كافة المستويات.

حسن محمد محي السعدى: فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، جـ ٢، العراق- إيران- آسيا الصغرى، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ١٨٥.

٤- **Ephal, A.: The Ancient Arabs, Nomads on the Borders of the Fertile Crescent 9th- 5th Centuries, B. C. Leiden 1982, p. 115.**

٥- أحمد أمين سليم: فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، الإسكندرية ٢٠٠٦، ص ٢٢٧-٢٣٣.

٦- يمثل إقليم الجوف حالياً إحدى مناطق التقسيم الإدارى فى المملكة العربية السعودية، حيث تقع بين "عرعر" من الشرق و"القريات" من الغرب وحائل من الجنوب وتتلامس حدودها مع "تبوك" من الناحية الجنوبية الغربية.

٧- لطفى عبد الوهاب: العرب فى العصور القديمة، مدخل حضارى فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٧٩، ص ٣٢٢.

٨- جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٩٣، ص ٤٤٢.

٩- محمد بيومى مهران: دراسات فى تاريخ العرب القديم، الإسكندرية ١٩٩٧، ص ٣٨٨.

١٠- سُجل هذا الجزء من حوليات الملك "تجلات بلاسر" منقوشاً على قطع من الطين المحروق عثر عليها فى منطقة "كالح" وهو محفوظ حالياً فى المتحف البريطانى وقد نشرها **Oppemheim**. انظر:

عبد العاطى سمسم: العلاقات بين شمال شبه الجزيرة العربية وبلاد الرافدين، القاهرة ٢٠٠٨، ص ١١٨- ١١٩.

١١- Ephal, A.: op. cit., p. 115.

١٢- جواد على: المرجع السابق، ص ٥٨١.
١٣- عبد العاطى سمسم: المرجع السابق، ص ١٢١.
١٤- جواد على: المرجع السابق، ص ٥٧٨.
١٥- عبد العاطى سمسم: المرجع السابق، ص ١٣٣- ١٣٩.
١٦- نفس المرجع، ص ١٤٥.
١٧- جواد على: المرجع السابق، ص ٥٨٨.
١٨- المرجع السابق، ص ٥٩٠.
١٩- عبد العاطى سمسم: المرجع السابق، ص ١٥١.
٢٠- نفس المرجع، ص ١٥٢.
٢١- محمد بيومى مهران: المرجع السابق، ص ٢٣١- ٢٣٥.
٢٢- عبد العاطى سمسم: المرجع السابق، ص ١٥٢.
٢٣- لطفى عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ٤١٢.
٢٤- عبد العاطى سمسم: المرجع السابق، ص ١٥٤.